كتاب الغرائب

الباب الأول: في ماهية الروح.

الباب الثاني: في حقيقة العقل.

الباب الثالث: في غرائب الفقه.

الباب الرابع: في قوله اهدنا الصراط المستقيم.

الباب الخامس: في غرائب الأخبار.

الباب السادس: في سر القدر.

الباب السابع: في القول في الحروف.

الباب الثامن: في أن الثواب والعقاب للروح أم الجسد.

الباب التاسع: في بيان نعمة الله وسبحانه وتعالى على العبد.

الباب العاشر: في خاصية الماء.

obeikandl.com

الباب الأول

في ماهية الروح

اعلم يا علم الرؤساء، وصدر الوزراء حقيقة لا مجازاً، أن هذه المسألة من مجازات العقول، ضل فيها علماء ولا يعرفها إلا محقق عالم، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. والناس قد تكلموا فيها زهاء خمسمائة قول، وشرح ذلك يقتضي كتابا طويلا فنقدم على ذلك سؤالا وجوابا.

أما السؤال، قالوا: قال اللّه تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] فلو كانت الروح معلومة للخلق ما قال اللّه ذلك وما كان لهذا الكلام معنى. قلنا: أجمع العلماء من أصحاب الملل والاعتقادات أن المخلوقات على نوعين لا ثالث لهما: جواهر وأعراض. فالروح إما أن تكون من قبل الجواهر أو الأعراض؛ لأنه يستحيل أن يرد الشرع بخلاف ما اقتضاه العقل؛ فقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥]، أي: ما أوتيتم من العلم الذي نص عليه إلا قليلا من كثير بحسب ما تحتاجون إليه. فالروح من المنزل النص عليه؛ لأنه أراد أن يعرفوا ذلك بالاعتبار ويتوصلوا إليه بالدلائل والاستبصار، وهذا بخلاف سؤالهم عن الطاعة لأنه لا طريق للعقل إلى معرفة ذلك إلا من طريق الأخبار. هذا وجه التحقيق.

جواب آخر: أن ابن عباس ترجمان القرآن، قال: «الروح ملك عظيم على بني آدم». وقال قتادة: «الروح جبريل»، وقال علي: «الروح ملك له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان، يسبح اللّه بكل لسان، وهو حافظ على الملائكة كما أن الملائكة حفاظ على الخلق». فإن كان معنى الروح هذا، فكفى اللّه المؤمنين القتال، وإن كان غيره فقد اختلفوا، فقال قائل: نعم في الجملة أن الروح

موجودة عمارة البدن، والجسد والانفصال عن خراب القالب، ويكفي ذلك القدر من العلم. وهذا لعمري منهج قويم ومذهب الاستقامة. وقال جمهـــور المحققـــين: إن الروح هي الحياة، وإن الحياة عرض يقوم بالحي، فمتى وجد فيه يكون حيا، وإذا عدم فيه فقد حصل ضده وهو الموت. والدليل عليه أن المحدثات علـــى نـــوعين صفة وموصوف باتفاق العلماء، ومحال أن تكون الروح موصوفًا جسمًا لـــه؛ لأن الجسم والجوهر لا يصيران صفة الحي وإنما يكون مجاورا، فالمجاور لا يكتـــسب صفة ولا وصفا لما جاوره، ولا يوجب التغير والتبديل، وكان يجب أن يكون القالب خاويا كما كان إذا جاور الحي ميتا أو جمادا.

فلما كان الأمر بخلافه علمت أن الروح غير جسم، والدليل عليه أن الـــروح لو كانت جسما أو جوهرا لصح أن يكون حيا وقابلا لسائر الأعراض والجـــواهر. وذلك محال في صفة الروح، فإذا ثبت هذا ثبت أن الروح صفة، وهذا ظاهر لا إشكال فيه؛ فإن قلت: بقي أشد من أشده فقد خالفت صاحبك الأشـــعري الألمعـــي وخالفـــت الكتاب، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، فلـــو كانت الروح صفة ما صح قبضها لأن الصفة لا تقبض، وكيف ترفع في حواصـــل طيور خضر؟ والجواب: أن نقول عرفت شيئا وغابت عنك أشياء. أما صاحبي فما خالفته فإنه أحد قولي المنصور في بعض كتبه. وأما قبض ملك الموت، فمعناه أن اللّه تعالى جعل إليه جذب الأنفاس والهواء الذي في مجاري العروق فعنده يخلـــق الموت الذي يضاد الحياة.

ألا ترى أن الأنفاس تتتابع عند النزع ويقع الاضطراب فـــيحكم فيـــه بالوفـــاة، فحيث قال اللّه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] فمعنـــاه: يخلـــق الموت ويأمر به. وحيث قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١]، يعنـــي يقـــبض ويجذب، وحيث قال: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٢٨]، فمعناه: يسوقون العباد إلى

القبض. فانظر إلى هذا التحقيق والتدقيق الذي يتقاطر عنه ماء التوفيق، ولا تلتفت إلى قول الفلاسفة الكفار، واليونانية الضلال: أن الروح نفس ودم وأنه قديم فإنه من ترهات الدسائس. فما يوجد ويعدم ويتصل وينفصل كيف يكون قديما؟ وما يتغير ويتجدد، كيف ينعت بالقدم؟ ولهم في ذلك خبط طويل ومذهب ثقيل. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد: ٥].

الباب الثاني

في حقيقة العقل

وهي مسألة عظيم خطبها مهيب شأنها، وكثر القال والقيل فيها، وفيها أغلوطات ومعارضات من المخالفين، حتى قال بعض الملحدين: إن العقول متفاوتة مختلفة، وقالوا: العقلاء بخاصية العقل عرفوا الأشياء، والأنبياء بخاصية العقل وصلوا إلى المعجزات، ولبسوا على العوام، وقالوا: نحن إنما قلنا العقول متفاوتة تعظيما للأنبياء. فإنه كيف يجوز أن يقال: إن عقل الأنبياء مثل عقل العوام، والأساكفة والحاكة؟ ولولا لأن العقول متفاوتة لما ورد الخبر بانقسام العقول وإذا كانت متفاوتة، فاستواء الكل في التكليف يكون ظلما عظيما، فإن البهيمة التي تقدر أن تحمل مائة من[1] فلو حملتها مائتين يكون ظلما عظيما.

ومقصودهم أن يخرجوا الناس عن دين اللّه، فيقولون: إن العقل لا يحصل به معرفة، والإمام المعصوم لم يخرج بعد فافعل ما شئت، ويفتحون على الناس باب الإباحة.

وهذه مسألة: سأل بعض تلامذتنا الإمام محيي الدين يحيى السلمَّاسي فتحير

---

[1] المَنُّ: كيلٌ معروفٌ أو رِطْلان. "القاموس المحيط".

فيها وما نبس بشيء فيها، فأقول - والحق يشهد له بالعقول: يا مخاذيل عن صبوح يرفعون، بنيتم قصرا، وخربتم مصرا، العقول نوع علم ضروري لا يتجزأ ولا يتبعض ولا يوصف بالزيادة والنقصان، ولكن أنتم عميان، وعن الحجة عارون، ودعواكم فيها زور وبهتان، وأكثر المحققين ما وضعوا للعقل حدا، لأن الشيء إنما يحد لخفائه واستتاره حتى يظهر ويتبين، وأما إذا كان الشيء ظاهرا جليا منكشفا يعرفه العقلاء فلا يحتاج إلى حد.

وهبني قلت هذا البصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء[١]

وضعفاء الناس ومساكين الكلاب إنما أتوا بالفرق من قلة الفهم بين العقل والعلم، فنحن نذكر أنواع العلوم حتى ينكشف لأهل البصائر حدّ العقل.

فليعلم أن العلوم ثلاثة أنواع: النوع الأول علم ضروري يحصل للعاقل من غير كسب ونظر، ولا يقدر على دفعه عن نفسه لا بالنفي ولا بالإثبات، وسمي ضروريا؛ لاشتماله على نوع من الضرر، كعلم الإنسان بوجود نفسه، وعلمه أن الاثنين أكثر من الواحد. والثاني البديهي: كعلم الإنسان. والثالث: علم الاستدلال، ولا يحصل إلا بالتكسب والتذكر وهو علم النظر[٢].

فإذا ثبتت هذه القاعدة فاعلم أن العقل نوع من العلم الضروري، وما ذكرناه يعرف به جواز الجائزات واستحالة المستحيلات، ويعرف به وجوب واجبات العقل وأن الصنع لا بد له من صانع[٣]، والكتاب لا بد له من كاتب، ودليل العقل يدل

---

(١) البيت من بحر الوافر.
(٢) النظر: هو إعمال الفكر في حال المنظور فيه.
(٣) لأن أحكام العقل ثلاثة، وهي المجموعة في قول بعضهم:

أقسام حكم العقل لا مَحَالة هي الوجوب ثم الاستحالة
ثم الجواز ثالث الأقسام فافهمْ مُنحت لَذة الإفهام

على المعقول لذاته وصفاته.

فكل عاقل يعلم من نفسه أن الصنع لا بد له من صانع، والبناء لا بد له من بانٍ، وأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن شخصًا واحدًا لا يكون في مكانين في حالة واحدة سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا، والعقل معنى واحد في الآدمي؛ ومع وجود ذلك المعنى يقدر على النظر والاستدلال، ولا يجوز أن يوصف المعنى الواحد بالزيادة والنقصان؛ لأن العَرَض الواحد لا يتجزأ ولا يتبعض، ووراء ذلك أوصاف أخر لا تتعلق بالعقل وتشتبه على الناس مثل البلادة والكياسة والتجربة والاستعمال. فهذه لا تعقُّل لها بالعقل بل يرجع إلى دوام التجربة؛ لأن العقل في حصول العلم به مثل آلة، والعمل بذلكِ الآلة هو التجربة، والنظر في وجوه الدليل. وهذا يتعلق بكسب الآدمي، فهذه متفاوتة جدا. فعرفت أن أصل العقل لا يتفاوت وأوصاف أخر يطلق عليها اسم العقل مجازا واستعارة، وذلك تتفاوت، ويخرج عن هذه القاعدة جميع أسئلة الخصم أن عقل الملك والرسول مستويان متماثلان. وتفاوت العقول يرجع إلى التجربة والاستعمال[1]. ولذلك تأول الخبر: «خلق اللّه العقل ألف جزء» يعني: استعمال العقل. فأحدهم يكون دراكا فطنا، وآخر يكون صلدا بليدا؛ ففي هذا يتفاوتون قوله:

الأنبياء عرفوا بخاصية عقولهم معجزات. قلنا: يا ملاحدة، قد بينا أن العقل لا يتفاوت، وإن سلمنا جدلا فلم يكن رجل منذ خمسمائة وأربعين سنة يعرف خاصية سلك المعجزة فيدعيها مع كثرة عددكم وشدة وثوبكم على إبطال الحجج،

---

(١) ويحمل كلامه على التساوي في وجود أصل العقل لا الاستواء من كل جهة؛ فإنه ورد في الحديث: «إن الله تعالى قسم العقول بين الناس كما قسم الأرزاق، فمنهم منّ أوتي قيراطين، ومنه من أوتي ثلاثة..» الحديث بمعناه؛ وعليه فيكون هناك عقل فطريٌ وعقل كسبيٌ، وهو الذي يقع فيه الزيادة والنقصان، وهو الحاصل بالتجربة والاستعمال، والله أعلم.

فإن اليونانيين يقولون: النبوة طريقها الرياضة والكسب، فلم يكن أحد راض نفسه وهذبها وزكاها حتى بلغ منتهاها – قاتلهم اللّه أنى يؤفكـــون. فحجتنـــا القـــرآن فهلموا فعارضوا القرآن يا أخابث بني الزمان، ولا يقدرون على ذلك ولـــو كـــان بعضهم لبعض ظهيرا.

الباب الثالث

في غرائب الفقه

كل شيء نجس فلا يَطْهُرُ إلا شيئان: جلد الميتة إذا دبغ، والخمر، إذا صار خلا[١]. ولا يجزئ فرض العبادة كلها بغير نية، إلا ثلاثة: الحج والعمرة والزكـــاة في مسألة واحدة: إذا أخرجها الولي من غير نية له في دفعها إليه. وكل شـــيء ينقض الطهارة، ففي الصلاة وغيرها سواء، إلا في شيء واحـــد وهـــو: رؤيـــة المتيمم الماء في الصلاة.

ولا تسقط الصلاة عن أحد بالغ، إلا بثلاث علل: الحيض والنفاس وزوال العقـــل بجنون أو مرض. كل موضع طاهر صليت فيه جاز[٢]، إلا في موضعين ظهر الكعبـــة إذا لم يكن بين يده بناء، والثاني: إذا صلى داخل الكعبة إلى ناحيـــة البـــاب والبـــاب مفتوح. كل من وجبت عليه الزكاة إذا كان غنيا جاز له أخذ الزكاة إذا كان فقيـــرا، إلا اثنين: الهاشمي والمطلبي. وكل من افتقد ماله حتى لا يصل إليه ولا ينتفع منه بحـــال فليس عليه الزكاة فيه، إلا في خَلَّة[٣] واحدة وهي: أن يدفن ماله في بيته ولا يهتـــدي

---

(١) وفي مذهبنا الشافعي: إذا تخللت – أي: صارت خلاً بنفسها – فإنها تطهر، لا بوضع شيءٍ فيها كالبصل وغيره.

(٢) لقوله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وجعلت قرة عيني في الصلاة».

(٣) أي: صفة واحدة.

إلى موضع الدفن ولا يصل إليه فإن زكاته في كل سنة[١]. وكل كفارة وجبت في ماله كان أداؤها قبل الوجوب، إلا واحدة وهي: كفارة المجامع في رمضان.

وكل شرط في البيع يبطل البيع، إلا ستة: أحدها خيار الثلاثة[٢]، والثاني: إذا باع عبدا أو أمة واشترط على المشتري أن يعتقها، والثالث: التبري من العيوب، والرابع: إذا باع مملوكا واشترط على المشتري أن يعتقه ويكون الولاء للبائع[٣]، والخامس: إذا باع وشرط فيه رهنا أو حميلا والسادس: إذا باع ثمرة على شجرة أو زرعا في أرض أو عمارة دون الأرض اشترط على المشتري أن يرفعه. كل عقود المحجور عليه وهباته باطلة، إلا ثلاثة: الوصايا، والتدبير[٤]، والخلع[٥]، وإقراره بالمال جائز[٦]، والحوالة لا تثبت إلا بثلاثة: المحيل والمحتال والمحال عليه، إلا في مسألة وهي: الأب يكون لأحد ابنيه الصغيرين على الآخر مال فأحاله على نفسه جاز، وكذلك إن أحاله على ابن صغير[٧].

وكل غاصب يرد ما غصب إذا كان موجودا، إلا في ثلاثة مواضع: إذا غصب خيطا فخاط به جرح إنسان أو حيوان فإنه يضمن الخيط ولم يُنْزَع، أو غصب جارية ابنه فأولدها، أو غصب طعاما أو شرابا فطولب به وهو مضطر يخاف على نفسه، وليس يؤخذ المغصوب منه فيضمن القيمة. وكل سلطان أقطع رجلا من حماه أو حمى من كان قبله فإقطاعه جائز، إلا واحدا وهو: حمى رسول اللّه ﷺ فإنه حمى النقيع، فمتى أقطعه فعمره نقضت عمارته ويرد الحمى إلى أصله. وكل

---

(١) لأنه ملك تام وحيازة تامة، ويعد كالمال المكنوز.

(٢) أي: الثلاثة أيام من عقد البيع أو من استلام المبيع وقبض الثمن.

(٣) لأن الولاء لمن أعتق كما ورد في الحديث، ولأن كل شرطٍ خالف ما في كتاب الله تعالى فهو باطل ولو كان مائة شرط كما ورد في الحديث.

(٤) وهو أن يُعلّق إعتاق عبده أوَ أمته بِدُبُرِ حياته؛ فلأن الشرع يتشوف إلى العتق وإنهاء الرق فاستثنى ذلك من تصرفات المحجور عليه.

(٥) لأنهم يحتاطون في الفروج والدماء ما لا يحتاطون في غيرها.

(٦) لشدة الاحتياط في أموال الناس.

(٧) لحديث: «أنت ومالك لأبيك».

مال تلف في يد أمين من غير نقد فلا ضمان عليه، إلا في واحد وهو السلطان إذا استسلف للمساكين زكاة قبل حولها فتلف في يده ضمنه للمساكين قبله[١]. وكلّ ما أبيح للأحرار من لذات الدنيا أبيح للعبد، إلا التسري فإنه لا يحل لهم بحال، إلا على مذهبه الجديد[٢].

وكل من طلق امرأته بصفة لم يقع بدون الصفة، إلا في أربعة مواضع: أحدها أن يقول لحامل أو صغيرة أو مؤيسة: أنت طالق للسنة[٣]، أو أنت طالق للبدعة[٤] لزمه من ساعته لأنه لا سنة في طلاقها ولا بدعة، الثاني: أن يقول: أنت طالق بتطليقة واحدة قبيحة حسنة أو جميلة فاحشة، وقع الطلاق. والثالث: أن يقول أنت طالق أمس، فإنها تطلق في الوقت الذي تكلم فيه[٥]، والرابع: أن يقول أنت طالق إذا رأيت هلال كذا، طلقت إذا رآه غيرها.

والقتل ثلاثة أنواع: واجب ومحظور ومباح. فالواجب أربعة: قتل المرتد بعد الاستتابة، وقاطع الطريق إذا قتل ولم يتب، والمحصن إذا زنى، وتارك الصلاة بغير عذر[٦]. والمحظور قتل من لم يجب قتله، والمباح القتل قصاصا؛ فإن شاء قتل وإن شاء عفا، وقطع السارق أربعة: فأول ما تقطع يده اليمنى ثم رجله اليسرى ثم يده اليسرى ثم رجله اليمنى، ثم يعذب بعد ذلك ويحبس حتى تظهر توبته.

ولا يُجمع حدّ ومهر على أحد، إلا في مسألة واحدة: وهي أن يزني بامرأة

---

(١) لأن السلطان ولي من لا ولي له؛ فيضمن لهم هذا المال التالف.
(٢) أي: مذهب الإمام الشافعي ﷺ.
(٣) لأن عدة الحامل أن تضع حملها بنص القرآن، فإذا وضعت حملها قبل السنة طلقت منه، والصغيرة تعتد بثلاثة أشهر فقط فيقع طلاقها قبل حلول السنة التي اشترطها في طلاقه، والآيسة تعتد بثلاثة أشهر أيضًا فيقع طلاقها.
(٤) أي: أن يقع في حيض أو في طهر لم يجامعها فيه، فهذا ما يسمى طلاقًا بدعيًا.
(٥) لأنه إقرار منه بطلاقها قبل الآن في الأمس الماضي.
(٦) وهو إنما يُقتل حدًا لا كفرًا؛ فإن الأئمة الثلاثة سوى الإمام أحمد لا يقولون بكفره.

أبيه قبل أن يدخل بها أبوه ويكرهها على ذلك، فإن الحد عنها ساقط ويجب لها نصف المهر على الأب ويرجع الأب على ابنه الذي زنى، إن كان يعلم أن زناه بامرأة أبيه يفسد النكاح، وإن كان لا يعلم فليس عليه إلا الحد.

والنفي ثلاثة: نفي قطاع الطريق، فإن كان قَتَل قُتِل، وإن كان أخذ المال قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى من خلاف، ومن لم يفعل من ذلك شيئا إذا أخذ حبس حتى تظهر توبته. ومن جمع بين قتل وأخذ مال قتل وصلب ثلاثاً[١] ثم دفع إلى أوليائه، وقال في القديم: يصلب وهو حي، ويترك أوقات الصلاة ثم يقتل بعد ثلاثة. والنفي الثاني: البكر الزاني يُنفى بنفسه، وإن كان مملوكاً جلد خمسين[٢]، وفي نفيه قولان: أحدهما ينفى نصف سنة، والآخر لا نفي عليه[٣]، والثالث: ما يروى في حديث مرسل، أنه نفى خنثيين من المدينة هيت وماتع[٤].

وكل من أمر رسول اللّه ﷺ بقتله أو نهى عن قتله لم يَجزْ أكلُه، فقد أمر بقتل ستة في الحرم: الحدأة والعقرب والغراب والفأرة والكلب العقور،[٥] ونهى عن قتل الهدهد والخطاف والصرد والنملة والضفدع. وكلما أخطأ القاضي فضمانه على المحكوم له، ما عدا الحدود فإذا رجم امرأً فأخطأ كانت ديته على بيت المال وأما سائر الحدود فلا أَرْشَ عليه فيها.

---

(١) أي: ثلاثة أيام.
(٢) لأن العبد على نصف الحر في العقوبة.
(٣) لعلها مراعاة لمصلحة سيده، فالعبد وما ملك لسيده، فلو نفي لضاع كسبه وافتقد سيده ما يكسبه هذا العبد من مال.
(٤) يعني: وكانا عبدين.
(٥) وهذه أربعة فقط، وقد ورد في الحديث: «خمسٌ يقتلن في الحل والحرم»، وزاد عليها ﷺ في حديث آخر: «عشرٌ يقتلن في الحل والحرم..»، ومنها: السام الأبرص.

الباب الرابع

في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾

المسلمون كلهم على الهدى، فما معنى هذا الاستهداء؟ فيه ثلاثة أقوال في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦] أي: زدنا هداية إلى الإسلام، وقد وعد الله الزيادة في الهدى، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾ [محمد: ١٧] وفي قول آخر: أرشدنا إلى طريق الجنة. قال الحطيئة:

تحنن عليّ اليوم هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا

وفي قول آخر: ثبتنا. ﴿ يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾[1][الأعراف: ١٦٧]. نزل ﴿ وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٨٦] يعني: الغُلمة[2]. ﴿ وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] لأن طالوت كان ابن دباغ. ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أهل السنة والجماعة. ﴿ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾[آل عمران: ١٠٦] أهل البدعة. ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾[النساء: ١٤٨] يعني: من ساء ضيافته فله أن يشكو. ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩] أي: الفعل، ولم يكن التعليم رغما للملحدين - لعنهم الله - ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا ﴾ [الأعراف: ٥١] أكلا وشربا. ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ ﴾ [إبراهيم: ٣٥] الدراهم والدنانير[3]. ﴿ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ [النحل: ٩٧] القناعة. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠] بحب أبي بكر وعمر. ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ [مريم: ٣١] نفّاعا. ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾

---

(١) هكذا بالأصل المطبوع، قديمًا منذ خمسة وثمانين عامًا، وفي المطبوع الحديث. وهذا شروع منه في التكلم على آياتٍ أخرى سوى ما عنون به هذا الباب من الكتاب.

(٢) الغلمة: شدة الشهوة.

(٣) ويؤيده حديث: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش» فسماه عبدًا.

[مريم: ٧٦] سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قرأ النبي ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[مريم: ٧١] أعني: ورد الكفار دون المؤمنين[١]. ﴿ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ [طه: ٥٩] العيد. ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ ﴾ [النور: ٣٥] هادي السماوات. ﴿ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] الحاكة والأساكفة. ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥] أبا بكر وعمر. ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [النمل: ٢١] لأحبسنَّه مع غير جنسه. ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[القصص: ٧٧] القبر والكفن. ﴿ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] كانوا يتضارطون في المحفل. ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾[فاطر: ١] الصوت الحسن، وقيل: الوجه الحسن. ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾[فاطر: ٢٢] الأحياء: العلماء، والأموات: العوام. ﴿ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾[٢] [فاطر: ٣٤] ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٧٠] عاقلا. ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١] بموت العلماء. ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٠] العلماء. ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ ﴾ [فصلت: ١٩] الشُّرَط والأعوان[٣]. ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] يعني: علمت فَاثْبُتْ، كقوله: «والرجز فاهجر» [المدثر: ٥]، وقد كان هاجر عن الشرك، ومعناه: هجرت الشرك ولزمت الإسلام فاثبت عليه، والقرآن نزل بلغة العرب، وهم يقولون للآكل وللنائم: نم. وللقائم: قم، يعني: على ذلك أكلك ونومك. ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣] بنو تميم. ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ [ق: ٤١] من صخرة بيت المقدس. ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] لا نسيان ينسيه. ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٧] متعشقات لأزواجهن غَنِجَاتٌ. ﴿ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

---

(١) وبعضهم يفسّر الورود بالمرور على الصراط ناجيًا أو مأخوذًا مسلمًا أو كافرًا دون تخصيص للآية بهذا المعنى الذي هو ورود الكافرين بمعنى دخولهم إياها.

(٢) ها هنا سقط، وهو تفسير الآية قبله.

(٣) أي: من كان فاسدًا منهم معيناً على الظلم مرتكبًا له.

يعني: السلاطين والأمراء، ومن تحـت أرجلكـم: الغوغـاء والعـوام. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] من الحاجين الكعبة. ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] يعني: بالكتاب والرسالة. ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] يعني: لا تنس العمل به. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] ومن شر الذَّكر إذا قـام. ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] البخل. ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] كلب المحلَّـة[١]. ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] يعني: البخل فتتبـاخلوا فتهلكـوا. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] قال عبد اللّه بن الزبير: يعني: سـبل الخـلاء والبول[٢].

الباب الخامس

في غرائب الأخبار

قال أبو ذر العقيلي: يا رسول اللّه، أين كان ربنا قبل أن يخلق الـسماوات؟ قال ﷺ: «في غمام فوقه هواء وتحته هواء» يعني: قبل خلق السماء كان اللّه ولم تكن الأشياء، ولم يكن فوق ولا تحت، وقيل: في غمام ممـدود، وهـو الـسحاب الرقيق. وقال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها. فلا يـصح وصف اللّه بأنه في مكان، يعني: كان اللّه وغيره من الأشياء. كان عدما محضا.

قوله للجارية المنذور عتقها: «أين اللّه»؟ فأشارت إلـى الـسماء، فقـال «أعتقها فإنها مؤمنة». وهذا سؤال عن المكانة لا عن المكان، كما يقال أين فلان ابن فلان؟ يراد به المكانة والمنزلة لا المكان. يعني: عظمته في قلبـي كعظمـة

---

(١) أي: الموضع أو المدينة.
(٢) هذا فردٌ من أفراد الآية وليس كامل معناها.

السماء، وقيل: استراب النبي ﷺ بأنها موحدة أو وثنية تعبد الأصنام، فلما أشارت إلى السماء، يعني: خالقي الذي خلق السماء، قال: «أعتقها».

قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، ورحم اللّه لوطا إنه كان يأوي إلى ركن شديد». وهذا طعن على نفسه وعلى إبراهيم. قوله: «أحق بالشك» قال قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبي، فقال: «أنا أحق بالشك من إبراهيم»، تواضعا منه وتقديما له على نفسه، يريد إنا لا نشك ونحن دونه، فكيف يشك هو؟ ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: يطمئن بتعيين النظر.

قوله: «لا عدوى ولا طِيرَة» ثم قال: «لا يردنَّ ذو عاهةٍ على مُصِحٍّ»، «وفِرَّ من المجذوم»، تشتد رائحته حتى يسقم جليسه وأكيله والمرأة تكون تحت المجذوم فتسقم لرائحته.

فصل: قال ﷺ: «إذا نظر الوالد إلى ولده فَسَرَّه كأن الوالد أعتق نسمة»، قيل: يا رسول اللّه، وإن نظر ثلاثمائة نظرة، فقال: «اللّه أكبر» يعني: عطاؤه أكبر.

وقال: «إن اللّه تعالى يحاسب العبد فيما ينفقه إلا في ثلاثة مواطن: عند فطوره وعند سحوره وعند حضور ضيفه».

وقال ﷺ: «ما من نَبْت إلا وبجنبه ملك موكل به حتى يحصد، فأيما امرئ وطئ ذلك النبت لعنه ذلك الملك». وقال: «ما أنفق عبد درهما في زنا إلا فقد ستمائة درهم لا يعرف لها وجها، وما أنعم رجل على رجل بنعم فلم يشكرها فدعا عليه، إلا استجيب له».

وقال: «ما عجت الأرض إلى ربها عز وجل من شيء كعجها من ثلاثة: من

دم حرام سفك عليها أو غسل من زنا أو نوم قبل طلوع الشمس»[١].

«وما من امرأة تصدقت على زوجها بشيء من صداقها قبل أن يدخل بها إلا كتب الله لها بكل دينار عتق رقبة».

«ما من خطيئة عند الله بعد الكبائر أعظم من خطيئة من يمـوت وعليـه أموال الناس دَيْنًا في رقبته لا يجد له قضاء».

قال: «ما منكم من أحد يصيبه شيء إلا رآه في منامه قبل ذلك حفظه مـن حفظه ونسيه من نسيه».

«ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه سـبع ولا طيـر ولا إنس ولا جان[٢] إلا كان له بذلك صدقة».

«ما من أحد إلا ودّ أنه كان بما أوتي من الدنيا فوقاه من أهوال الساعة».

«من ولد له مولود فسماه محمدا تبركا إلا كان هو ومولوده في الجنة».

«ومن غرس يوم الأربعاء فقال سبحان الوارث الباعث؛ فإنه يأكلها».

«ومن بلغ ابنُه النكاحَ وعنده ما ينكحه ثم أحدث حدثا فالإثم عليه».

«من باع عقدة[٣] من داره بغير ضرورة سلط الله على ثمنه تالفا يتلفه».

«ومن جاوز أربعين سنة ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار».

«من كانت تجارته الطعام بات وفي صدره غِلُّ المسلمين».

«ومن وقّر عالما فقد وقر ربه».

---

(١) وفي الحديث أيضا: «إن الأرض تضجُّ إلى الله تعالى من نومة العالم بعد صلاة الصبح».
(٢) والجن يأكل بشم الرائحة وأكل ما تبقي من لحم على العظام.
(٣) العُقدة: العقار الذي اعتقده صاحبه ملكا. "القاموس المحيط".

«من قلّم أظفاره يوم الجمعة عوفي من السوء كله إلى الجمعة الأخرى».

«من سرّه أن يحرم اللّه وجهه ولحمه ودمه على النار فليمت بقزوين».

«من بنى فوق عشرة أذرع نادى منادٍ من السماء يا عدو اللّه أين تريد؟».

«ومن تختم بالعقيق ونقش فصه: (وما توفيقي إلا باللّه)؛ وفقه اللّه لكل خير، وأحبه الملكان الموكلان به».

«من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام».

«ومن زنى زُني به ولو بحيطان داره».

«لما كان الليلة التي ولد فيها أبو بكر الصديق ﷺ أقبل ربكم عز وجل إلى جنة عدن، فقال: وعزتي وجلالي لا أدخلك إلا من أحب هذا المولود».

الباب السادس

في سر القدر

وحقيقة القدر بمعنى التقدير والتضييق، كقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]. هذه مسألة تحير فيها العقلاء، وتبلد فيها الفضلاء، وضل بها العلماء، وارتد بسببها جماعة، وهو شأن مهول، وسر عظيم، وخطب جسيم، يقولون: اللّه غني. فأي حاجة إلى التكليف؟ فإنه كان قادرا أن يدخلهم الجنة من غير تكليف: وكيف أمر بالرحمة وهو يرى المساكين والمرضى والزمنى ولا يرحمهم؟ وعلم من الكفار الكفر، ومن العصاة المعصية وأراد منهم ذلك، فإنه لا

يجوز أن يكون معلوما[١] دون إرادته، ومع ذلك يعذب الكفار والعصاة وهو حكيم، ويعذب عباده على ما أراده منهم، فالعبد يقول: يا رب أنت قضيت وأجريت، فهذا واللّه العجب كل العجب له خزائن وجواهر وعباده يموتون بالجوع ولا يعطيهم، ويقول لهم: اصبروا وصابروا على الفقر الذي لا أنتفع به وتموتون عليه. ثم يقول: إن اللّه لا يسأل عما يفعل، وهذا باب تحيرت فيه العقول، هل يجوز أن يأمر بشيء يخرج عن الحكمة وينوب عنه العقل ثم ينهى العاقل عن البحث عنه؟ وهل هذا إلا جور وظلم؟ وأنشد قائلهم:

سبحان من أنزل الدنيا منازلها ... وصير الناس مسبوًّا ومرفوقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبُه ... وجاهل خَرِق تلقاه مرزوقا
كأنه من خليج البحر مغترف ... ولم يكن بارتزاق القوت محقوقا
هذا الذي صير الألباب حائرةً ... وصير العالم النحرير زنديقا[٢]

وأنشد المسكين اليائس ابن الراوندي[٣]:

يا قاسم الرزق لم فاتتني القِسَم ... ما أنت متهم قل لي من اتهم
إن كان نجمي فنجمي أنتَ منجمه ... وأنت في الحالتين الخصم والحكم
فخذ من العلم شطرا واعطني ورقا ... لا تحوجَنِّي إلى من شخصه صنم[٤]

الجواب: أقول: يا معشر المسلمين سلوا اللّه الثبات على الإيمان، واحفظوا لسانكم عن الطغيان فإنه مزلة الأقدام وحيرة الأنام، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك. هذه مسألة محي بسببها اسم عزير من ديوان النبوة، وعوتب

---

(١) المعلوم: أي المقدور؛ لوقوعه في علم الله تعالى أزلا.
(٢) البيت من بحر البسيط.
(٣) وهو مشهور بالإلحاد والمروق من الدين.
(٤) الأبيات من بحر البسيط.

obeikandl.com

عليها موسى بن عمران، «وإذا ذكر القدر فأمسكوا»[١] والسر فيه: إن تكليف اللّه عباده يجري مجرى تكليف المريض، فإذا غلبت عليه الحرارة أمره بشرب المبردات، والطبيب غني عن شربه لا يتضرر بمخالفته ولا ينتفع بموافقته، والضر والنفع يرجعان إلى المريض، والطبيب هادٍ ومرشد، فإن أطاع المريض الطبيب شفي وتخلص، وإن لم يوافق وخالف تمادى به المرض وهلك، وبقاؤه وفناؤه عند الطبيب سيان، فكما أن اللّه سبحانه خالق الشفاء سببا والفناء سببا وعرَّفه الأطباء، فكذلك خلق السعادة الأخروية سببا يفضي إليها، وخلق المعصية سبب الخذلان؛ ففي كل شيء حكمة أحاط علم الباري بها وقصر علمنا عنها، والبرهان أنه يتصرف في ملكه لا يجب عليه اعتراض لواحد، يدل عليه: أنّ أحدنا ينظر من القدرة الحادثة إلى القدرة القديمة، وهذا قياس الملائكة بالحدادين، فقدرته أزلية وقدرتنا حادثة مخلوقة فأين يتساويان؟!.

الباب السابع

في القول والحروف[٢]

اعلم أن هذه مسألة عظيمة ومشكلة داهية لا يعرفها إلا الفضلاء ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، فالعامي إذا سأل عنها فليزجر فإن سلامة دينه في تركه سؤاله، «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وكل مترسم بالعقل تراه يدعو الناس

---

(١) هذا نص حديث شريف، وعن سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ: القدر سر الله في أرضه لم يطلع عليه أحدًا.

(٢) أي: قول القائل لفظي بالقرآن مخلوق، وأن كلام الله تعالى ليس مخلوقًا لأنه كلامه وكلامه تعالى صفة من صفاته، وصفاته تعالى قديمة يستحيل عليها الحدوث يعني: صفات الذات، أما صفات الأفعال فتعلقاتها حادثة، فالله رازق فإذا رزق أحدًا فهذا تعلق صفة الرزق الثابتة له سبحانه، وهذا التعلق بالحوادث بالدنيا حادثًا. وهذا معناه أن القرآن ليس مخلوقًا، ومن قال خلاف ذلك فهو كافر، ولكن جلد المصحف والحبر المكتوب به مخلوق حادث.

إلى الخوض في الحروف، فاعلم أنه مفتون مضل ليس من أئمة الـدين، فالإمـام مالك بن أنس – رحمه اللّه – ما يحارب في رد السائل الذي سأله عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، فإن عـدت أمـرت بضرب رقبتك؛ لأن أفهام العوام لا تحتمل هذه الأسرار، ولو علم العامي الجِلْف[1] في ساعة ما علمه العالم بمدار سبعين سنة يكون غنيا عظيما.

مثال من يدعو العوام إلى الخوض في الحروف مثال من يـدعو الـصبيان الذين لا يعرفون السباحة إلى الخوض في البحر، ومن يدعو المزمن المقعد إلـى السير في البراري، يدل عليه قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، وكلام اللّه تعالى لا تكفيه البحار السبعة وإن بلغت سبعين ألفا، فاعلم أنها شـافية كافية، ولأنك كنت معدوما والحروف موجودة فكيف تكون معدوما وكلامك موجود؟ ويلزمه أن تكون الحروف في المحاسبة والمكاتبة وفي كل حالة قديمة لأن الدليل قد قام على أن الجواهر متماثلة، وسماع صوت المرأة حرام، واسـتماع القـرآن مباح واجب في كل موضع، فلو قرأت أجنبية القرآن هل يحل استماعها؟ إن قلت: لا يحل فهو كفر؛ لأنه يقول لا يحل استماع القرآن. وإن قلـت: يجـوز، فخـلاف الإجماع إن صوت المرأة عورة.

(١) الجِلْف: بالكسر هو الرجل الجافي. "القاموس المحيط".

الباب الثامن

في أن الثواب والعقاب للروح أم للجسد؟

اعلم أن الثواب والعقاب للروح مع البدن، ومن قال كل ذلك للروح دون البدن، فقد أمحل وكذب، وهو مذهب السوفسطائي[١]؛ لأنا نعلم ضرورة أن الأفعال والتدابير والآراء كلها تصدر من الجسد الحي، وفي حال النوم كما يخيل له يكون على وجه ما رآه في حال اليقظة حتى إن الأكمه لا يبصر ولا يحس[٢]. فمن قال: إن جميع الأفعال تصدر من الروح فقد رفع الضرورة، وأيضا من قال: إن الروح هي الحياة التي يخلقها اللّه تعالى في الشخص، فإذا أراد أن يميته لم يخلق تلك الحياة فيموت الشخص، فكيف تبقى الروح؟ وأن الثواب والعقاب معها هذا محال؟.

وأيضا أن الطاعة والمعصية حصلت منهما جميعا لا من أحدهما، فمن قال: إنه يفرد أحدهما بالنعمة والعقوبة فقد أبعد وظلم، وأيضا إذا نام الإنسان لا يكون له خبر بما فعل ودبر في حال اليقظة، ولا يكون له خبر من المنامات المتقدمة الماضية. فلو كان للروح خبر بعد الموت كان يجب أن يعرف أحوال نفسه، وأيضا لو كانت الروح تحس وتتألم وتتلذذ باللذة والفرح، ويعلم قطعا أن البدن إذا تألم وتوجع وتحزن ثم نام ليستريح ويتروح دل أنه لا خبر للروح في شيء من ذلك، ولا علم لها في أحواله وأفعاله، وأن لا يحس ولا يعلم من غير ملابسة الجسد، ولا يجوز في دين اللّه أن لا يكون حاله هو الحساس الدراك الباقي المتنعم، والجسد هو المتألم المتوجع فيكون ظلما.

---

(١) لعله قصده بالإجماع على أن صوت المرأة حرام وعورة أي: مع الخضوع بالقول والفحش والإيماء بسوءٍ.. فهذا حرامٌ بالإجماع ويكون صوتها حينئذٍ حرام استماعه لأنه مفضٍ للافتتان بها.

(٢) يعني في حال اليقظة، ولكنه يبصر ويحس في حال النوم.

والحجة الواضحة في ذلك: أن الثواب بالطاعة والعقاب بالمعصية إنما صدر من الجسد بواسطة الروح، ولم تنفرد الروح بذلك، فإن كانت الطاعة بهما تحصل فيجب أن يكون العقاب والثواب لهما كيلا يكون إجحافا وظلمًا، وأيضا فإن خطاب اللّه تعالى يتوجه على النفوس والأبدان، بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ [الانفطار: ٦] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤] ولم يقل: يا أيها الروح، فإذا كان الأمر والنهي والخطاب مع الجسد؛ فيستحيل أن تكون الروح مفردة في ذلك، يدل عليه أن اللّه تعالى حيث ذكر الثواب والعقاب والوعد والوعيد ونعيم الجنة وعذاب الجحيم إنما عنى به الجسد، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾. ﴿ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ﴾: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ [الحج: ٥] فاللّه تعالى خلق هذا الجسد من التراب، وأمات هذا الجسد، ثم يحيي هذا الجسد، ثم يخاطب ويحاسب هذا الجسد؛ فدل أنه المُثاب والمُعاقب؛ فإنه سبحانه حكيم لا يجوز أن يأخذ زيدا بجناية عمرو، ولا يجوز أن يحمل جريمة زيد على عمرو؛ فدل أن الروح لا تحيا بدون الجسد.

الباب التاسع

في بيان نعمة اللّه سبحانه وتعالى على العبد

قال اللّه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠] ، فالنعمة الظاهرة سلامة البدن، والنعمة الباطنة الإيمان، فأول نعمة اللّه عز وجل على العبد أن خلقه حيوانا[١] متميزا على الجمادات، درّاكا للّذات حساسا للطيبات، ومنها العقل الذي يعرف به الخير من الشر، والحق من الباطل، والكفر من الإيمان، فيا لها نعمة ما أعظمها!! فمن شك فيها فلينظر في حالة المجنون يأخذ من أسفله ويضع في فيه ولا يشعر، ومنها نعمة الإيمان، وما أعظمها!! فإن الإنسان به ينال عز الدين والدنيا وسعادة الآخرة، فانظر إلى الكافرين وخزيهم، وتفكر في مصارع المتهمين الملحدين في الدنيا، ثم انظر في حال مراتبهم بالكفر يكون أذل من اليهود، فترى اليهودي آمنًا ولا يأمن المتهم بالإيمان.

والحق هو الإيمان وما سواه فكفر وطغيان، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ٨٣] لكنتم من الخاسرين، ولولا فضلي ونعمتي خصصتكم بالإيمان لكنتم مع فرعون وهامان، ومنها أن يحفظ عليك الإيمان، ويحفظك عن الكفر والشرك وإلا شددت الزنار في وسطك[٢]، ومنها أن وكّل على كل مؤمن مائة وثمانين ملكا يحفظونه من الماء والنار والجن والإنس، ولولا ذلك لاختطفته الجن، وقال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه قدر على كل مؤمن ومؤمنة خمسة من الملائكة واحد عن يمينه يكتب الحسنات، وواحد عن يساره يكتب السيئات، وواحد بين يديه يدله على الخيرات ويقوده إليها، وواحد من ورائه يصونه عن الآفات، وواحد يبلغني صلاته

---

(١) أي: أودع فيه الحياة.

(٢) الزّنار: ما يلبس على وسط النصارى والمجوس، تمييزًا لهم ودفعًا لهم إلى الإيمان والدخول في عز الإسلام والتخلص من هذا التمييز والخزي.

عليّ لأستغفر له». ومنها أن خلقك رجلا لا امرأة، لأنه تعالى خلق ألف صنف من الحيوان ليسوا من الجن والإنس، فيجب على الرجل ألف شكر أن خلقه رجلا ولم يخلقه امرأة، ويجب على المرأة ألف شكر أن خلقها أنثى ولم يخلقها خنثى، ومنها أنه جعله من أمة محمد ﷺ لأن دينه خير الأديان، وأن أمته خير الأمـــم، وبنـــو إسرائيل شدد عليهم في أشياء ولم يشدد على هذه الأمة، ومنها أن خلقه سُـنِّيا لا مبتدعا، فإن السني له فضل على المبتدع، ومنها العافية التي انتهت آمال النـــاس إليها، والعافية وثلاثة أشياء: دين سليم عن اللَّغات[1]، وقوت حلال عن الشبهات، وأمن كامل.

وقال الشبلي – رحمه اللّه –: «العافية أربعة أشياء: دين قـــوي، واعتقـــاد صحيح، وبدن قانع من الحرص، وقلب طاهر من غش المسلمين».

ومنها ستر العيوب فإنه لا يكشف عورات عباده لدى الذنوب، فما علم الرب من عبده لو أظهره لخلقه لتبرأ الأب من ابنه، والزوج من زوجته، ومنها النـــوم الذي هو راحة البدن والقلب، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبـــأ: ٩] ولولا ذلك لاختلت القوى. ومنها الحواس الخمس، ونعمة العين مشكورة وقـــوام الآدمي بها، قيل: من أراد أن يعرف قدر نعمة اللّه عليه فليغمض عينـــه ســـاعة، ومنها اللسان الذي يعبر به الآدمي عن الألم واللـــذة والفـــرح والغـــم، وســـائر الحيوانات لا يقدرون على ذلك، ومنها الأمن الذي استفيد به الإسلام حتى قـــذف الرعب في قلوب الكافرين فلا يقصدون الإسلام مع أنه بعدد كل مسلم ألف كـــافر معجزة للنبي ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعب»، ومنها أنه أغناك عن الناس، وأحوج الناس إليك حتى كنت تتصدر في بيتك، ويجيء الناس إليك، قال اللّه تعالى: «من أغنيته عن طبيب يشفيه، وعن سلطان يستعين به عما في يد أخيه فقد أتممـــت نعمتـــي عليه»، ومنها الحِرَف والصنعة حتى يكتسبوا بها ويعمروا الـــدنيا، وحبـــب إلـــيهم الدراهم والدنانير عمارة للدنيا، ومنها تسخير الأنعام للآدمي؛ فينقاد الجمل العظـــيم

---

(١) اللَّغات: بالفتح والتشديد للام هو ما لا يعتد به من كلامٍ وغيره. "القاموس المحيط".

للصبي الضعيف، ولو استصعبت البهائم من كان يطيقها، ومنها أنه جعل الماء مركبا للآدمي فيحمل عليه الآلاف من الحديد والحجر ويقضي بها حاجاته.

الباب العاشر
في خاصية الماء

ولولا تسخير اللّه سبحانه وتعالى الماء لم يصل أحد إلى مقصوده في تلك البلاد، ومنها إلقاء البذر في الأرض ينبت بواحدة سبعمائة إلى غير ذلك، ومنها المدن والبلاد، فلو لم تكن البلاد لتضرر الآدمي من السّبع والحر والبرد، ومنها أن جعل الآجال مكتومة فلو أظهرها لتنغص عيش الآدمي ومات غما، ومنها انه أخرج أمة محمد في آخر الأمم ليقل مكثهم تحت التراب فلا يستوحشون في القبور كثيرا، ومنها أن أحسن صورتك عظما في عظم وعرقا في عرق ولحما في لحم، فلو كنت مشوه الخلق كنت كالقرد والخنزير أو على صورة الخنثى المشكل ما كنت تصنع يا خاطئ؟ ومنها أن خلق الشمس والقمر والسحاب والرياح، ونبات الأرض، وأمطار السماء، والأنعام والبهائم والطير، والملائكة في شغل شاغل لأجلك وأنت فارغ لا خير لك فأين الشكر؟ ومنها قبول توبتك من ذنوبك في جميع العمر ولم يخسف بعباده الأرض لدى الذنوب، ولم يمنعهم الرزق، فلو جعل البركة في الذباب والحيات كما جعل في البقر والغنم لم يتلذذ الآدمي من خوف الأسد والذئب، ولو جعل في المواشي قوة السباع لما انتفع بها أحد.

فللّه على العبد نعمتان: نعمة النفع وما توصلها إليه، ونعمة الدفع وما يدفع عنه، وما دفع اللّه أكبر؛ فنعمة النفع: السمع والبصر والنطق، ونعمة الدفع: كالعمى والخرس والبكم.